

## الخيال و صناعة الصور الفنية في الشعر الشعبي الجزائري

أ. لوصيف لخضر

جامعة الجلفة

مقدمة :

إن الخيال عنصر جدير بالطرح و المعالجة ضمن أي حديث عن الصورة الفنية و الأسس النفسية لها ، و في أي شعر ، و بأي لغة لأن لفظة (( التخيل )) تعني - لغويا - (( التوهم )) ، و تخيل الشيء له تشبه ، و الخيال و الخيالة : ما تشبه لكل في اليقظة و الحلم من صورة ...<sup>1</sup> .

و الدكتور جابر عصفور يرى أن (( كلمتي : ( التخيل و التوهم ) قد دخلتا مجال المصطلح الفلسفي من زاوية المباحث النفسية المتصلة بسيكولوجية الإدراك ، و من ثم ترادفت الكلمتان معا و تزوجتا في التعبير عن إحدى قوى النفس الباطنة ))<sup>2</sup> (2)

ولذلك فالخيال من القوى الخلاقة الكامنة في النفوس ، و التي تساهم عند الشعراء مساهمة فعالة في عملية التصوير ، و لكنها لا تسعى أن يكون ما تصنعه أو تشكله من صور يمثل نقلا حرفيا للواقع ، أو يصوره تصويرا آليا ، و إنما الخيال يكمن فضله كملكة نفسية في دفع المتأملين إلى إعادة تأمل الواقع المتخيل من خلال رؤية شعرية متميزة فيها من الإثارة و الثراء لحساسية المتلقي ، و كذا من التعميق لوعيه و مداركه.

وإذا كان فيه بعض الدارسين المتطفلين على دراسة الأدب الشعبي و المرتجلين في آراءهم فينفون و بجرأة على الشاعر الشعبي صفة التخيل، و يجردون قصائده من عنصر الخيال و ذلك من خلال نفهم تماما لوجود شيء اسمه الأدب الشعبي على الساحة الأدبية و الفكرية باعتبار أن هذا النوع من الأدب (( تخلف و جهل لأنه يصور تعابير و أحاسيس و مشاعر قائله من عامة الناس ))<sup>3</sup> ، لأنه و على حد تعبير بعضهم الآخر هو أدب ((ساذج

<sup>1</sup> الفيروز آبادي - القاموس المحيط ( أنظر باب اللام - فصل الحاء : ص : 897 )

<sup>2</sup> جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي عند العرب : ص 17

<sup>3</sup> سوكلوف يوري : الفلكلور و قضاياها و تاريخه - ترجمة حلمي شعراوي و رفيقه - الهيئة المصرية للكتاب القاهرة

المحتوى و قليل المعنى ، و فقير اللغة و بسيط البناء ))<sup>1</sup> ، إلا أنهم لو بحثوا كثيرا لوجدوا ابن خلدون قد فصل في ذلك منذ أكثر من خمسمائة عام و قبل ظهور الدراسات الشعبية نفسها معتبرا أي حديث إقصائي للنص الشعبي على أساس لغوي ( إعرابي ) هو مساس بالجانب البلاغي و الفني فيه ، لأن فقدان الإعراب - حسب رأيه - في هذا الأدب لا دخل له في البلاغة<sup>2</sup> .

و إذا كان من الباحثين أيضا و ممن يعدون روادا في دراسة الأدب الشعبي الجزائري عموما - و الشعر منه خصوصا - ينفون على الشعراء الشعبيين صفة التخيل و يرون أن أي تصور (( في رؤية الشعر الشعبي لم يكن وليد تصور خيالي اكتشفه الشاعر الشعبي ، و إنما كان جزءا من الممارسات التي عاشها ))<sup>3</sup> و يحاولون في آرائهم تجريد نصوص الملحون من عنصر الخيال معتبرين إياها نصوصا غير راقية (( في مجملها إلى مستوى فني يمكننا من الجنوح مع الخيال الذي سيلتقط فيها أو يستنتج منها ))<sup>4</sup> .

و لذلك ندعو أصحاب هذه الآراء و غيرها من الآراء المقصرة في حق النص الشعري الشعبي إلى إعادة الوقوف مرة أخرى في دراساتهم على الحدود الحقيقية الفاصلة بين ما هو شعر شعبي حقيقي و غيره قائلين لهم بأنه إذا كان الشعر عموما هو أقدر أنواع الأدب تعبيرا عن أحوالنا فإن الشعر الشعبي مجاله أرحب و أوسع تعبيرا عن ذلك لأن شعراء يتمتعون باستعداد فطري سليم و خيال خصب مساعد على استيفاء مختلف جوانب حياة مجتمعاتهم .

و لهذا نجد بعض المحللين للتراث الشعبي العربي عموما يرون أنه (( و بخلاف الأدب الرسمي الذي توخى عالم الواقع، فإن الأدب الشعبي أغرق في الخيال ، فعوض بذلك نقص الأدب التقليدي ... ))<sup>5</sup> معتبرين التراث الشعبي العربي أدب خيال علمي عموما ، و يمثلون على ذلك بكتاب ( ألف ليلة و ليلة ) (( باعتباره منجم أدب شعبي لا ينضب ، ينبض بحياة المجتمعات الوسيطة ، و يحكي آمال البشر و آلامهم عبر العصور التي

<sup>1</sup> محمد حسن عبد المحسن : الأدب الشعبي في حلب ( دراسة و تحليل ) ص : 33

<sup>2</sup> المرجع نفسه ص : 32

<sup>3</sup> - التلي بن الشيخ : منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري ص 80

<sup>4</sup> العربي دحو : الشعر الشعبي و دوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس ص : 233

<sup>5</sup> المعرفة : - العدد 490 ص 129

رويت فيها حكاياته ، مما جعل كثيرا من الأدباء في مختلف العصور يستمدون منه القصص و الروايات و المسرحيات ... ))<sup>1</sup>.

و ردا على ما سبق ذكره من آراء تمس بقيمة النص الشعري الجزائري الملحون في مجال التصوير الفني فترمي قائله بقصر أخیلتهم ، فإننا نرى أن هذه الآراء لم تكن عفوية و لم تأت من العدم و إنما الذي أملاها على أصحابها في الكثير من الأحيان هو الواقع الشعري الذي يتعاملون معه كدارسين ، فما اعتمده البعض من نصوص للتحليل هي التي شوهدت المخيلة الشعبية الجزائرية في مجال الإبداع و صنع الصور على العموم ، و ساهمت في خلق هذه الرؤى الضيقة أو المتطرفة لأنه أصبح أكثر من واجب أن تكون النصوص الشعرية الشعبية المختارة و التي تمثل أي ميدان أو خريطة شعرية منتقاة وفق أسس فنية معتمدة هي أيضا على أسس ذوقية للنص الشعري الملحون ، لأن أي دارس لهذا النوع من الشعر لم يوظف ما يسمى بالذوق الأدبي كملكة (( يعتمد عليها الناقد في تعرفه على مواطن الجمال و القبح فيما يتناوله من نصوص الأدب ))<sup>2</sup>.

و بفضلها دائما يستطيع أيضا (( أن ينتخب الأشعار التي يستخدمها في شواهد ، فلا ينقب في الدواوين ، و كتب النقد حتى يستخرج منها أروع الأبيات و يعرضها عليك بطريقة تبهرك ))<sup>3</sup>.

و لهذا نجد أن الكثير من المهتمين و الباحثين الذين يتمتعون بسلامة الذوق ينزلون إلى بعض المناطق الهضابية و السهبية باعتبارها مناطق حبلی بالشعر الملحون و بشعرائه إذ كانت و لا تزال إلى الآن ميادينها تمثل قبلة هؤلاء الدارسين و توجههم.

فالمتمصفح لقصائد بعض فحول هذه المناطق الشعرية يجد أصحابها رغم تقدم عصرهم عن كل ما قيل من حديث عن الخيال ، و كذلك رغم جهلهم لكل النظريات المتحدثة عن الخيال ، إلا أنهم يدركون بأن هذا العنصر - أي الخيال - أصيل في أي شاعر ، و أنه من القوى النفسية الكامنة و التي يعتمد عليها كثيرا في كل لحظات الغضب و الشدة و الانفصال.

<sup>1</sup> المعرفة : العدد نفسه ص : 129

<sup>2</sup> منصور عبد الرحمن : اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس هجري ص : 446

<sup>3</sup> - أحمد على دهمان : الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني (منهجها و تطبيقها) ص 404 - 405

فلفظ ( الخواطر ) قد ورد كثيرا في قصائد الملحن الجزائري و الذي يعني - لغويا - الهواجس<sup>1</sup> . و هي الوساويس ، أو كل ما يركب الإنسان من حالات نفسية غامضة و التي تكاد تمثل جانبا من التخيل أو التوهم باعتبار أن النقاد أنفسهم يعرفون الخيال بأنه (( من الأشياء الغامضة التي يصعب تفسيرها.و إذ كانت تعرف بآثارها ))<sup>2</sup>. فالشاعر ( عبد الله بن كريبو )- مثلا - يعد من أعلام الشعر الشعبي الجزائري عموما و بهذه المناطق خصوصا و في طرحه لقضية الخيال يبين أن غموضه يكمن فيما له من دور مركب في التخفيف و التضييق عن النفوس في آن واحد بقوله<sup>3</sup> :

**جيت نوسع خاطري ضيق عشيه<sup>4</sup> زدت عليه هموم من نظرات صعاب**

و هو الطرح نفسه عند الشيخ ( السماتي ) الذي حاول الهروب بالنفس من الضيق فوقع فيه إذ يقول<sup>5</sup> :

**رحت نحوس جيت بجراح معدم<sup>6</sup> باش نوسع خاطري ولى هو زاش**

ولفظة ( هو زاش ) هنا في قول الشاعر السماتي منقلبة عن كلمة ( هواجس ) التي تقابل ( الخيال ) أو تعنيه في الاصطلاح النقدي الأدبي.

والذي يؤكد للقارئ فعلا وعي الشاعر ( السماتي ) و إدراكه لما يتمتع به من خيال تصويره لمحبوخته بطريقة رمزية متخيلة فيقدمها لنا في صورة بعض الحيوانات المتوحشة المخيفة كالنمر و الأسد و غيرهما حين يقول<sup>7</sup> :

**نلقى وصف نمر صيفاتو تهزم قلب العبد يذوب منها ما يحياش**

ثم يضيف<sup>8</sup> :

**ما يضيفل خاطري و لا يهتم لا يفزع من صيفة السبوعا و أوحاش<sup>9</sup>**

<sup>1</sup> الفيروز آبادي - القاموس المحيط - ( أنظر باب الرء - فصل الخاء ص 348 مادة : خطر )

<sup>2</sup> منصور عبد الرحمن : اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري ص 412

<sup>3</sup> عبد الله بن كريبو : ديوانه ص 109

<sup>4</sup> ضيق عشية : و معناها المساء المتأخر أي قبيل المغرب

<sup>5</sup> المخطوط لدى الباحث

<sup>6</sup> معدم : مصاب من جديد

<sup>7</sup> - المخطوط السابق نفسه

<sup>8</sup> المخطوط نفسه

<sup>9</sup> أسبوعا و أوحاش : أسود و وحوش

إلا أن يكشف بعد ذلك إلى كل لائمه عما كان متخيلا في هذا التصوير الفني المجازي، ويحاول تقديمه في صورته الحقيقية إسما ووصفا فيقول<sup>1</sup> :

يا لايم في محنتي لاش تلوم      نوريك اللي كان و السبة كيفاش  
وصف مهذب زين و اسماها مريم      خلعتني و ابقيت باكم ما نلقاش

وإذا بحثنا عما يحققه الخيال الشعبي من فاعلية و من نشاط في الصورة فإننا نجد الشاعر (عبد الله بن كريو) من الشعراء الذين شدت قصيدته (قمر الليل) من الجماهير الشعبية المتذوقة للملحون الجزائري الكثير ، كما حظيت باهتمام العديد من المحللين و الدارسين ، لأنه استطاع فيها بفضل خياله أن يخلق جوا من المعاشة و الاستئناس بالقمر في ليل موحش ساعدته فيه هواجسه و خواطره ، و أسعفته على أن يصنع من هذا القمر أنيسا بديلا لخليلته فيقول<sup>2</sup> :

قمر الليل خواطري تتونس بيه      نلقى فيه أوصاف يرضاهم بالي  
يا طالب عندي حبيبة ليه شببيه      من مرغوبي فيه سهري يحلالي  
نبات نقسم<sup>3</sup> فالليالي ننظر ليه      يفرقني منه الحذار<sup>4</sup> التالي

و الملاحظ أن الشاعر الشعبي يملك قدرة خيالية تفوق كل ما يتصوره عنه البعض ، إذ استطاع (ابن كريو) أن يخلق في نفوسنا إعجابا و دهشة من خلال الربط بين ما هو نفسي بما هو طبيعي ، و هو طرح وقفنا عليه عند الدكتور جابر عصفور و هو يتحدث عن العلاقة المتماسكة و المتينة بين الخيال و الصورة انطلاقا

من مستوى الاشتقاق اللغوي الأجنبي ( Imagination ) و ( Image ) ، بعيدا عن كل ما يحمله عنصر الخيال من معنى لغوي قديم عند العرب إذ يرى أن (( الصورة هي أداة الخيال و وسيلته ، و مادته الهامة التي يمارس بها ، و من خلالها ، فعاليتها ، و نشاطه ))

<sup>1</sup> جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي عند العرب ص : 14

<sup>2</sup> عبد الله بن كريو : ديوانه ص 107

<sup>3</sup> نقسم : (قسم الدهر القوم : فرقههم ، أنظر القاموس المحيط : باب الميم فصل القاف :ص 1031) ونعني هنا بات فطنا مستيقظا في دلالتها الاجتماعية المحلية.

<sup>4</sup> الحذار : و هو آخر نجم يغيب قبيل الصبح

وإذا كان النقاد يطرحون كثيرا النشاط و الفاعلية الخيالية من خلال عملية التصوير الشعري ، فإننا نجد أيضا للمخيل الشعبي سلطته لما تحدثه أقاويل الشعراء الشعبيين من أثر في النفوس، أو بتعبير آخر فإننا نسجل تناسبا كبيرا بين ما هو صور فنية شعبية و ما هو انفعالات.

فما شاع عن الأولياء الصالحين من كرامات أو من أفعال عجيبة يمكنها أن تدخل في مصاف ( الخوارق ) لم تجد أمامها إلا تجارب الشعراء الشعبيين و ما يتمتعون به من خيال لوصفها ، و هو ما كان فعلا و وفق ما يحرك النفس و يتجاوز حدود التعبير العامي اليومي البسيط إلى القول الشعري المتخيل كما في قول الشاعر سي لخضر فيلال

ما شفتش ناس القليعة غيريا      سبع أمحمد سرطته بقرة عقية<sup>1</sup>

ما شفتش عيطات جابو بن عليه      و جبلو راحل في عقابو جا عاتيه

ولقد استطاع الشاعر الشعبي في هذا النص أن يخاطب الجانب الانفعالي لكل المتلقين لنصوص الملحون و ذلك باعتماده للصيغة ( ما شفتش !! ) التعجبية و التي كررها مرارا ، إذ راعى في تصويره لكرامات الأولياء و الصالحين المطلب الوجداني و الروحي والحيوي للذين يخاطبهم بأقواله الشعرية و ذلك كله انطلاقا من تجربته الفردية لأن طريقة التصوير لهذه الكرامات تشكل شعورا عاما مشتركا بين المبدعين و المتلقين والمريدين على حد سواء...

---

<sup>1</sup> سبع أمحمد سرطته بقرة عقية : يروي أحد الرواة من المناطق السهبية بجنوب عين يوسف ( جنوب المدية ) الشيخ فيلال السعيد بن لخضر و هو أحد أقرباء الشاعر أن الشطر يصور فيه صاحبه اجتماعا عقده بعض الأولياء و الصالحين و من بين من حضره الشيخ " سي أمحمد بن عودة " ولي غليزان الصالح الذي حضره على ظهر سبع ، و كذلك ولي القليعة الصالح " سيدي مبارك " الذي حضر هو أيضا على ظهر بقرة نحيفة صحراوية - على حد وصف الراوي - و في مكان مبيت هؤلاء الأولياء خصص مريض مشترك لكل الحيوانات فاشتد خوف الناس من سبع " سي أمحمد بن عودة " على حيواناتهم المتواضعة و التي كانوا يركبونها، و لما وصل الصبح و قرر الجميع الرحيل لم يجدوا للسبع أثرا فاحتاروا فخرج إليهم ولي القليعة " سيدي مبارك " و أخذ بقرته و ضرب على ظهرها فخرج منها السبع

ودار المسارة فالحجر مور بيديه

ما شفتش قسوم بطبول هليا

و جباد القطران فالصحراء تبغيه

و ما شفتش عواس مول الشرقية

## المصادر و المراجع

- 1- أحمد علي دهمان : الصورة البلاغية عند عبد القادر الجرجاني ( منهجا و تطبيقا ) منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية دمشق - الطبعة الثانية 2000
- 2- جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي عند العرب دار التنوير للطباعة و النشر - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية 1983
- 3- منصور عبد الرحمن : اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة 1977
- 4- التلي بن الشيخ : منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1990
- 5- الفيروز آبادي - قاموس المحيط - دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان 1999
- 6- العربي دحو : الشعر الشعبي و دوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس ( الجزء الأول ) المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1989
- 7- محمد حسن عبد المحسن : الأدب الشعبي في حلب ( دراسة و تحليل ) طبع وزارة الثقافة السورية - دمشق 1994
- 8- عبد الله بن كريبو : ديوانه : جمع و تحقيق إبراهيم شعيب مطبعة السلام - الأغواط - الجزائر - الطبعة الأولى 1998
- 9- لخضر لوصيف بن الحاج : قصائد منسية من ملحون المدينة منشورات الرابطة الوطنية للأدب الشعبي لإتحاد الكتاب الجزائريين - الجزائر 2007
- 10- سوكلوف يوري - الفلكلور : قضاياها و تاريخه - ترجمة حلمي الشعراوي و رفيقه الهيئة المصرية للكتاب 1981
- 11- المعرفة : مجلة ثقافية شهرية تصدرها وزارة الثقافة بالجمهورية السورية العدد 490 جمادي الآخرة 1425 / تموز 2003